في كتاب يحتفل بمئوية مالك بن نبي (1905 . 2005): مفكر شاهد ومشروع متجدد

تنبأ بعودة افكاره بعد ثلاثين عاما من وفاته.. ومصر بثقلها لم تتحمل افكاره واهتم بها المغاربة والاندونيسيين

دعا لإزالة نوازع القابلية للاستعمار قبل كفاح المحتلين والدين في فكره حركة اكثر منه كمونا داخليا

عرض: فوزي منصور*

■ كتاب «مالك بن نبي» يجمع أشغال ندوة دولية نظمتها جمعية النبراس الثقافية بمدينة وجدة (شرق المغرب) في منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) 2005، تخليدا لذكرى المفكر الجزائري مالك بن نبي (المتوفى عام 1963) بمناسبة مرور 100 عام على مولده في عام 1905. وقد حضرت الندوة الدكتورة رحمة مالك بن نبي ابنة المفكر، حيث أدلت بشهادتها عن فكر والدها. وشارك فيها بشهادات معها كل من: الدكتور حسن الأمراني، والدكتور عبد السلام الهراس حول معرفتهما الشخصية بالمفكر الجزائري والفترة التي قضياها معه في القاهرة في نهاية خمسينيات القرن الماضي. كما شارك بأبحاث في الندوة كل من الأساتذة: أحمد بوعود، د. محمد المستيري، د. عبد العزيز برغوت، د. لطيفة الوارثي، نادية الديوني، د. مهدية أمنوح، محمد البنعيادي ومصطفى شعايب. وجميعهم باحثون مغاربة معروفون. كما اختتمت الندوة بقصيدة من الشعر العمودي للشاعر محمد فريد الرياحي في رثاء المفكر الجزائري الراحل.

شهادة الدكتورة رحمة بنت مالك

تقول ابنة مالك: «مالك بن نبي نتذكره اليوم كما قلت لأسباب تاريخية، وأسباب أخرى منها: اخفاق البدائل التي طرحت في الساحة الاسلامية. فالاخفاق جعلنا ربما نتذكر مالك بن نبي ونبحث في قراءة جديدة لفكر مالك بن نبي. وكان مالك بن نبي قد أنذر وأعلن افلاس تلك الأيديولوجيات التي تحمل تناقضا يجعلها غير منسجمة مع الواقع الاجتماعي والثقافي في المجتمع الاسلامي وفي الساحة الاسلامية العربية أو غير العربية فكان فشلها حتميا .(...) ربما يتبادر سؤال الى الأذهان عن الخصوصيات التي جعلت مالك بن نبي يتمكن من رصد بعض الأمور ومالها في المستقبل ـ في اعتقادي أن ما مكنه أو الخصوصيات التي مكنته، أنه كان مبدعا. بمعنى أنه كان يستطيع أن يرى الأمور العادية برؤية جديدة، أو الأمور المحيطة التي يراها الناس الاخرون وكان يراها برؤية خاصة به ورؤية جديدة. في فضاء الحرية المبدعة، وهي التي لا يمتلكها الا من اتصل اتصالا وثيقا بالله سبحانه وتعالى. فذلك الاتصال هو الذي يمكن الفرد من التخلص من الخضوع للهوى ومن الفكر النمطي الذي كان في تلك الحقبة. وأنا طفلة، كان رحمة الله عليه، من أولئك الذين يقومون الليل صلاة وتضرعا الى الله سبحانه وتعالى ويناجيه، فكان ذا صلة وثيقة بالله سبحانه وتعالى، أورثته صفاء روحيا وضبطا للنفس وعقلا مميزا جعله قادرا على ربط الأحداث بالأسباب الحقيقية مهما كانت مستبعدة في الظاهر... وأذكر أنه قال قبيل وفاته ان فكره سوف يعود بعد 30 سنة، فقد كان يدرك أن فاعلية الأفكار مرتبطة بالمحيط الذي تولد فيه وتنتج فيه».

ان اهمال كتب مالك بن نبي حوالي ثلاثين عاما فعلا من صدور ترجمتها العربية عن اللغة الفرنسية التي كتب بها، لم يكن السبب فيه أن ما ورد بها من فكر كان سابقاً لزمانه، ولكن الحقيقة أن الاهمال جاء من قبل العلمانيين المتغربين الذين كانت كتاباته عبارة عن نقد علمي لاغترابهم الثقافي، ولأن كتاباته ذات مرجعية اسلامية ثاوية فيها وظاهرة. مثلما جاء من الاسلاميين الذين لا يعتبرونه مرجعا دينيا معتمدا لديهم، وجاء بفكر جديد لم يقل به أو بمثله السلف الصالح. أما من لهم دراية بالعلوم الانسانية الغربية فقد راح يؤسلم معارفه الغربية ملتمسا ما يظنه موافقا لها من الكتاب والسنة على نحو يعد تزييفا وتلفيقا. ولم تصمد محاولاتهم أمام النقد العلمي. وبعد أن أيقن هؤلاء وهؤلاء من افلاسهم الفكري في مجال البعث الحضاري، لم يجدوا مفرا من الرجوع الى فكر مالك بن نبي المهجور منذ أكثر من ثلاثة عقود، ينقلون منه نقلا حرفيا دون أدنى اضافة من جانبهم. وأن أضافوا ـ كانت اضافتهم ليست أكثر من حاشية لشرح المتن، على سنة القدماء في زمن أفول شمس الحضارة الاسلامية. لقد اعتبروا ما كتبه مالك بن نبي هو غاية المنتهى للباحث في الموضوع، وليس مجرد بداية لانطلاق الباحث أو المفكر ليضيف من لدنه ابداعا يستكمل به ما أبدعه مالك. ان ابداع فكر اسلامي هو نعمة من الله على من يتصل عقله وقلبه بمولاه الذي لا يشرك به أحدا، وهذا المنعم عليه لا يحتاج أن يكون فقيها أو واعظا أو أن يثبت صحة ما أنعم الله عليه به بآيات أو احاديث أو أقوال أئمة، انما يكفي أن يستحضر في قلبه مقاصد الشريعة وأحكامها وألا يخالف ما قضى به الله ورسوله في شيء، وأن يستهدف مصالح المسلمين، ويبرهن بالعقل والمنطق على صحة كلامه الذي لا يتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله أو قد يدل على حسن فهمه لهما والتزامه بهما.

شهادة الدكتور عبدالسلام الهراس

يذكر الدكتور عبد السلام الهراس، وهو عالم دين وباحث مغربي كبير، بأن أول علم له بوجود مفكر جزائري يدعى مالك بن نبي كان عام 1956 بالقاهرة عندما كتب احسان عبد القدوس عنه في مجلة «روزاليوسف»، وتحدث عن مقال قدمه اليه مالك يتحدث فيه عن نظريته في «القابلية للاستعمار» والتي يقول فيها: «فبدلا أن أصب جهودي لازالة الاستعمار، يجب قبل كل شيء أن أزيل من وجداني ومن نفسي ومن روحي القابلية للاستعمار. وقال بأنه يوجد فرق بين الاستعمار والاحتلال. فاليابان والمانيا بلدان محتلان ولكنهما ما بين 1945 ـ 1950 أي خمس سنوات فقط تمكنتا من بناء مجتمع بكل مرافقه ومصانعه ونظام دولته ولم تبقيا مثلنا تبكيان على الأطلال». وبعد قراءة مقال احسان راح عبد السلام الهراس، وكان طالبا يدرس في مصر، يبحث عن ذاك الجزائري حتى التقى به مصادفة في مجلس جمع طلبة مغاربة كان منهم الهاشمي الطود (كولونيل متقاعد حاليا) ومحمد بن عيسى (وزير خارجية المغرب حاليا) وأحمد البقالي.. فتعرف عليه وضمه الى السكنى معهم، وبعد أن اقتنعوا بأفكاره التي كتبها كلها بالفرنسية، بدأ الشروع في ترجمتها له. فتولى عمر مسقاوي ترجمة كتابه «شروط النهضة». وعندما تعرف الهراس على عبد الصبور شاهين بعد ذلك سأله أن يترجم لمالك بن نبي كتابه: «الظاهرة القرآنية» لوجه الله وعندما انتهى منه قام بمراجعة ترجمة «شروط النهضة» وتقديمهما بعد ذلك الى المطبعة. وتحسنت وضعية مالك بعد ذلك بتعيينه مستشارا لأنور السادات الذي كان وقتها رئيسا لمجلس الشعب والأمين العام للمؤتمر الاسلامي بالقاهرة. واعيد طبع كتبه وترجمت للغات أجنبية.

وتحدث الدكتور الهراس مطولا عن القضايا التي حازت الجزء الأكبر من اهتمامات مالك بن نبي أثناء مقامه في القاهرة والتي كان في طليعتها الدعوة الى اقامة وحدة أفريقية اسيوية. وكان قد وضع كتابا عن الأفرواسيوية كان يود أن يقدمه الى موتمر باندونغ الذي انعقد عام 1955 الا أنه لم يتمكن من ذلك وقد أمر عبد الناصر بطبع الكتاب بعد ذلك فطبع. وكان شديد الاهتمام بوحدة المغرب العربي أيضا. ويذكر الدكتور الهراس أنهم حاولوا نشر أفكار مالك بن نبي بين الطلاب الوافدين من مختلف دول العالم الاسلامي، الا أن بعضهم، ممن كانوا يحملون الهم من منطلق اسلامي، لم يرق لهم الامر. لأن منطلق مالك كان منطلقا روحيا فكريا (أي كان خطابه مختلفا عن الخطابات الاسلامية التقليدية المعتادة». لقد عبر الدكتور عن هذا المعنى بدبلوماسية ذات حساسية مفرطة. ونفس الشيء، عندما تفادى القول صراحة بأن فكر مالك لم يجد من يحمله في مصر، رغم قوله أن الأرض كانت مهيأة لوجود علماء أجلاء ودعاة مثل الاخوان المسلمين والجمعية الشرعية والجمعيات السلفية (ومع ذلك لم يهتم كل هؤلاء بكتب مالك بن نبي ذات المرجعية الاسلامية الواضحة)، الا أن من حمل روح دعوة بن مالك كان المغاربة والجزائريون واخوان لهم في سورية ولبنان والسودان والسعودية وبعض الاخوان في أندونيسيا.

معادلات مالك بن نبي

تحت عنوان: «مالك بن نبي في دراسة الغرب» شرحت الدكتورة مهدية العياشي أمنوح منهج مالك بن نبي في النظر الى الغرب فهو اذ يوصي بدراسته يتمعن يطالب بنقد فكره وتصحيح أفكارنا عنه مستعينة بمؤلفات مالك بن نبي مثل: تأملات ـ مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي ـ شروط النهضة ـ في مهب الريح ـ وجهة العالم الاسلامي. وكيف نظر الى الغرب من زوايا متعددة: بصفته مستعمرا وبصفته مستشرقا وبصفته متحضرا ولم يعتبره كلا واحدا. ثم كيف حلل مالك الأفكار المركبة الى عناصر جزئية على هيئة معادلات رياضية مثل:

× الحضارة = الانسان + التراب + الوقت..... الفكرة الدينية.

× توجيه الثقافة = المبدأ الأخلاقي + الذوق الجمالي + المنطق العملي + الصناعة.

× المجتمع = عالم الأفكار + عالم الأشخاص + عالم الأشياء.

× فاعلية الطاقات الاجتماعية = اليد + القلب + العقل.

حل مشكلة = توجيه الثقافة + توجيه العمل + توجيه رأس المال.

وجاء في مداخلة الاستاذ عبدالعزيز برغوت أن الاستاذ بن نبي، بصرف النظر عن خطئه أو صوابه، حاول بذكاء القيام بعملية التوظيف من أجل التحليل العلمي المتكامل لظاهرة التجديد والتغيير في العالم الاسلامي. وقد قادت جهوده الى التأكيد على أن المشكلة تكمن في المنهج والفكر والانسان والثقافة والحضارة. وهذا في حد ذاته انجاز مهم جدا على مستوى تطوير نظريات ومناهج اسلامية لدراسة التغيير والتجديد. وينقل عن الدكتور محمد أحمد كنعان في كتابه «أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق».. قوله: « قد أبدع مالك بن نبي رحمه الله في تحليل أسباب أزمتنا الحضارية، ومن خلال رؤية متميزة للسنن التي تحكمها، فساهم بذلك في تصحيح النظرة الى الأزمة، حيث قدمها للناس بصيغة قوانين قابلة للفهم».

الأمية الحضارية

في كتابه «مذكرات شاهد للقرن» يرى مالك أن أمية المتعلمين أخطر من أمية الجاهلين بالقراءة والكتابة، ففي هذا النوع من الأمية يتم اختزال وظيفة العلم في تحقق المكاسب الذاتية، بدل الاسهام في بناء المجتمع. وهذا ما يطلق عليه اسم: «الأمية الحضارية».

يرى مالك بن نبي أن الأمي الحضاري هو: «الصبي المزمن الذي يظل قاصرا عن المساهمة في بناء شبكة العلاقات الاجتماعية»، ويقصد به المثقف الذي انعزل عن المجتمع وعزل في خطابه رجل الشارع، فأسهم في زيادة هبوط مستوى رجل الشارع فكريا وثقافيا في بلاد المسلمين كافة. ويتحدث مالك عن هذه الفئة في مذكراته فيقول: انها عاجزة عن ادراك لغة الشعب. وربما يعجب هنا أولئك المثقفون الذين أصبحوا لا يدركون لغة الشعب الجزائري المسلم، أنني لا أكتب هذه المذكرات من أجلهم، ولكن للشعب، عندما يستطيع أن يقرأ تاريخه الصحيح، أي عندما تنقضي تلك الخرافات التي تعرض أحيانا أفلاما كاذبة، والتي سيكون مصيرها الى صندوق المهملات مع مخلفات العهد الاستعماري. ويرجع مالك سبب انعزال تلك الطبقة من المتعلمين وانفصالها عن الشبكة الاجتماعية وانقطاع اتصالها بالشعب الى «أن البعض ـ من المتعلمين والنخبة ـ من أبناء الأمة ينظر الى رجل الشارع على أنه قاصر ينبغي ألا يخاطب خطابا فكريا أو ثقافيا، لأنه دون مستوى ذلك ـ في نظرهم ـ وأنه لا يتقن الا أنواعا محددة من الخطاب لا يتقنها المفكرون والمثقفون، وبعض الفئات اختزلت واقتصرت في خطابها على الشعارات فقط، أو ما يشبه الشعارات، مما زاد في هبوط مستوى رجل الشارع فكريا وثقافيا في بلاد المسلمين كافة، الا انه اعتبر رجل الشارع أيضا مقصرا لأنه لا يطالب بحقه في الخطاب الذي يلائمه، بل يفرط أيضا في هذا الحق وينظر الى الفكر والثقافة بازدراء. «فقد شاع لدى العامة وأنصاف المتعلمين ازدراء الفكر والهزء بالثقافة والتقليل من شأنها، والنظر الى الفكر والثقافة على أنها نوع من الترف من حق الأغنياء المترفين أن يمارسوه..»، اذ يرى مالك أنه لا يمكن نهوض الامة مع اقصاء أو تهميش أي مكون لها. والقضاء على ظاهرة الأمية الحضارية «لا يتم بزيادة المدارس، وانما بتحويل التعليم والثقافة من عمليات معرفة ذات أهداف تكديسية أو مكسبية الى عمليات تصنع المتعلم الفعال، الذي يشكل الطليعة الحية في احداث التغيير». ومالك يرى أن الفكر والعمل منظومة متكاملة لا يجوز تجزئتها حيث يفقد الفكر قيمته العملية ما لم يكن قابلا للعمل به. وتستطرد الاستاذة نادية المديوني في مداخلتها قائلة: ان مشكلة مجتمعاتنا الاسلامية، والتي تعد سببا من أسباب الفوضى في مختلف المجالات، تكمن في كون الفرد المسلم أصبح عاجزا عن الجمع بين العمل والتفكير في الوقت ذاته، أو أن يربط بين جهده الفكري وجهده العملي (...) وهذا العجز عن الجمع بين التفكير والعمل، الناتج عن الخلط بين جواهر الظواهر وأشكالها، والذي طبع الحركة الفكرية نشأ عن سبب عضوي تذكيه دائما ضروب من الشلل أصاب النواحي الخلقية والاجتماعية والعقلية جميعا، وأخطر هذه النواحي هو الشلل الاخلاقي، اذ هو يستلزم أحيانا النوعين الاخرين، ومصدر هذا البلاء معروف، فمن المسلم به الذي لا يتنازع فيه اثنان أن الاسلام دين كامل، بيد أن القضية قد أدت في ضمير ما بعد الموحدين الى قضية أخرى هي: «نحن مسلمون.. اذن نحن كاملون». والشلل الخلقي يعد السبب الرئيسي في تأخر المجتمع وتخلفه. اذ يعجز الشلل الخلقي المجتمع فيجعله غير قادر على زيادة جهده الضروري بنهوضه. (نقلا عن كتاب بن نبي «وجهة العالم الاسلامي»). ويرى مالك أن وجود العلم بالدين وبالاخلاق وبمختلف تفرعاته دون عمل المتلقي أو حامل العلم بعمله يحيل وجود العلم الى عدم ويستشهد في ذلك بحديث للرسول صلى الله عليه وسلم أخرجه الامام أحمد جاء فيه: «قال زياد بن لبيد: ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا فقال: وذاك عند ذهاب العلم، فقلنا: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه أبنائهم؟ فقال ثكلتك أمك يا ابن لبيد، ان كنت لا أراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والانجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء».

شمولية التغيير وضرورته

تقول نادية المديوني ان لاشكالية تخلف التغيير في الأمة الاسلامية محورين:

× المحور الأول: اشكالية النهوض والتغيير، يتمثل في غياب مناهج وبرامج التجديد والتغيير والنهوض، التي تدرك سنة الله في الأنفس والافاق أو قصور تلك المناهج.

× المحور الثاني: يتمثل فيما يمكن أن نطلق عليه فقه التنزيل، أي غياب فقه تنزيل النص على الواقع، من خلال ظروف وملابسات هذا الواقع واستطاعته، لا القبول به وايجاد مسوغات له، وانما لتغييره والنهوض به والارتقاء به وتطوير استطاعاته من الحال التي هو فيها، وهذا لا يتحقق لا بفهم الحاضر وامتلاك القدرة على وضعه في الموقع المناسب من مسيرة السيرة النبوية، والاعتبار بالمسيرة التاريخية للأمة المسلمة حيث تمنحها الرؤية القرآنية، وبيانها النبوي، وتنزيلها على الواقع في مرحلة السيرة، الحلول المتعددة للحالات المتعددة. وحتى تكون عملية التغيير شاملة ـ كما يقول مالك بن نبي في وصيته ـ لا يكفي أن يدرك أصحاب الفكرة، فكرة الثقافة التي لا بد أن تسود، الوضع الفكري والثقافي الحالي، بل لا بد أن تدرك باقي الفئات الأخرى بطريقة أو بأخرى فكرة الاصلاح أو التغيير. وتدرك أنه لا بد من تغييرات ثورية: فاما أن نقوم نحن المسلمين بالتغيير في مجتمعاتنا، واما أن تفرض علينا طبيعة العصر تغييرات من الخارج.. لأن هذه هي روح العصر، فالذي يجب أن نؤكد عليه أولا، وأن تتذكروه دائما: أننا اذا لم نقم نحن بثورتنا، فان التغيير سوف يأتي من الخارج ويفرض علينا فرضا. (وصية مالك بن نبي: «اما أن نغير واما أن نغير»، مجلة «العالم»، العدد 1988/244 ص 50 ـ وقد اعتبر المقال بمثابة وصيته الأخيرة وأثبتت الأيام صدقيتها وبعد نظره وقوة بصيرته ووعيه بحقائق الزمن الذي يعيشه ومسار تطورها المستقبلي).

التعامل مع القرآن الكريم

عرض الأستاذ أحمد بوعود كيفية تعامل مالك بن نبي مع القرآن الكريم خاصة في كتابه: «الظاهرة القرآنية» والذي قارن فيه بين ما رواه القرآن الكريم من أحداث والرواية المقابلة في التوراة. وأورد الاستاذ بوعود شهادة الطبيب الفرنسي الذي كان كتاب «الظاهرة القرآنية» السبب في اعتناقه الاسلام اذ اقتنع بعد قراءته لكتاب مالك بن نبي بأن القرآن كتاب وحي منزل من عند الله. ولقد اهتم بن مالك بعرض القضايا الآتية:

× جمع القرآن الكريم.

× الاعجازفي القرآن الكريم

× اللغة والمجاز في القرآن الكريم .

× مكانة القرآن بالنسبة للكتاب المقدس.

وقد عرض الدكتور بوعود لكيفية تعامل بن نبي مع هذه القضايا. وفي ختام مداخلته أشار الى أن وعي مالك بن نبي رحمه الله بتلازم العلاقة بين القرآن والحضارة، جعله يربط دائما بين قضايا القرآن الكريم ومحاوره بالتغيير الحضاري والثقافي الذي ينشده. وعن هذا الوعي صدرت جل كتاباته التي ضمنها زفراته وقلقه، وعالج كل الاشكالات في اطارها.

الحضارة والفكرة الدينية

وهو ما لاحظته الاستاذة نادية المديوني في مداخلتها. اذ قالت: «لقد ركز مالك على الفكرة الدينية وربط بينها وبين جميع أوجه النشاط الحضاري، وبذلك أحال النزعة الدينية من مجرد كمون داخلي عند الانسان الى حركة حية في العالم المنظور، حيث ترتبط بها وتنطلق منها كل دروب النشاط الحضاري، وبذلك يجسد لنا مالك بن نبي حقيقة العلاقة بين الدين والنشاط الحضاري..»، ثم تضيف نادية: ان العمل الثقافي أو الاجتماعي على سبيل المثال إذا تم، سيعكس لا محالة تصورا دينيا بعينه، لهذا لا بد أن نستحضر ـ نحن المسلمين ـ الفكرة الاسلامية أثناء قيامنا بعملية التغيير، ذلك لأن: «الفكرة الدينية تحدث تغييرها حتى في سمت الفرد ومظاهره حين تغير من نفسه، وبذلك يكون لمنهج التربية الاجتماعية أثره في تجميل ملامح الفرد، أي أن مجموعة من الانعكاسات تؤدي الى خلق صورة جديدة، كأنها تتمثل في وجه جديد» (ميلاد مجتمع). واقتران الحياة الاجتماعية بالفكرة الدينية كبير لدرجة أنه اذا تم التخلي عن هذه الفكرة، وعن القيم الأخلاقية التي تحملها، أصيبت الأمة بالدمار، والسبب في هذا راجع للاشخاص، لأنه لا يعقل أن يلحق الخراب بأمة وأهلها متشبثون بهذه الفكرة «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» (هود 117)، وما كان الله سبحانه وتعالى ليظلم عباده «فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (العنكبوت 39)... لا ينبغي أن نفهم أن التغيير مقتصر على الفرد فقط بل هو تغير القوم ـ أي المجتمع ـ لما بهم، حتى يتحقق تغيير الله لأحوالهم ...

في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه الى تحول المجتمع الى حالة من العجز والوهن والكلل بحيث لا يعود يستفيد من الوسائل التي بين يديه في تحصيل نتائج أحسن في مجال الاصلاح.... هذا النوع من الأفراد «أينما وجهته لا يأتي بخير» لا لأن الخير غير موجود، ولكن لأن وضعه لا يسمح أو يعجزه أن يأتي بأي خير. فأزمة الأمة الاسلامية ليست أزمة زاد أو أجهزة أو... وانما هي أزمة بشرية، لا لقلة البشر، بل هم كثيرون، ولكنهم «غثاء كغثاء السيل» لا يقدمون ولا يؤخرون، فقدوا الفاعلية وقوة الدفع. وذلك عندما أزاحوا عن طريقهم ما أسماه مالك بن نبي بالفكرة الدينية، أو جعلوها مجرد كمون داخلي عندهم، بمعنى أنهم أحدثوا الفصل بين الفكرة الدينية وبين مسيرتهم الحضارية.

وفي شهادة الدكتور الهراس وهو ينقل فكر مالك المبكر، يقول: «فبامتزاج الدين والروح الدينية والوحي بالنفس، وامتزاج بين الوقت والأرض والتراب والانسان، تبدأ الحضارة بالانطلاق، بمعنى اعطاء القيمة للوقت أي لزمن الانتاج والتراب مادة الانتاج وللانسان الذي هو صانع الانتاج، هو سر الحضارة».

الاسلام والديموقراطية

كانت علاقة الاسلام بالديموقراطية كنموذج لقضايا الاستغراب التي تعرض لها مالك بن نبي هي موضوع مداخلة الأستاذ محمد البنعيادي في الندوة. ويقول بن عيادي أن مالك رأى المشكل أساسا في الربط بين مصطلحي «الاسلام» و«الديموقراطية». وكخطوة منهجية أو لتفكيك وتحليل هذه العلاقة، كان من اللازم تعريف كل من المصطلحين. فما هو الاسلام اذن، وما هي الديموقراطية؟ يرى ابن نبي أن الاسلام مجموعة من المعتقدات والأفكار والأحكام والتشريعات المترابطة والمرتبطة بالوحي في مجالات الكون والانسان والحياة تتوخى هداية الانسان. انه توجه وتوجيه قيمي يرسم المسيرة الصحيحة لحياة الانسان وخلافته في الأرض. انه فكر منظم لرؤية فلسفية تتميز بالتكامل والشمول والتوازن عبر شريعة تنشد ارتقاء الانسان في الدنيا والآخرة. ولعل أهم مجالات التشريع هو الحياة الاجتماعية التي تتصل اتصالا وثيقا بالسياسة والحكم. اذن الاسلام لا بد أن يهتم بالسياسة، والسياسة لا بد أن تتحرك في نطاق الدين. ويظهر ذلك بيسر لكل متأمل في منحى وطبيعة القضايا الدينية والسياسية فالمشترك بين الدين والسياسة يرتبط بالهدف والقضايا الاجتماعية المراد معالجتها، بل لنكون مغامرين اذا قلنا بأن الدين يغطي باستمرار كل مجالات السياسة.....

والديموقراطية في أبسط معانيها تعني سلطة الشعب أو الجماهير. وهي مجموعة ممارسات ووسائل لصناعة القرار السياسي عن طريق مشاركة الغالبية من أفراد الأمة باعتبارها حجر الزاوية الأساسي للنظام والفكر الديموقراطين. انها تقوم على مبدأين أساسيين: حرية الانسان والاعتراف بالاخر..... إذن ما هو وجه المقارنة بين مفهوم سياسي يفيد «سلطة الانسان» في نظام اجتماعي معين وبين مفهوم ديني يفيد «خضوع الانسان» الى سلطة الله في النظام نفسه؟... هل اقامة حكم الشعب (الديموقراطية) مشروطة بالغاء الحاكمية الالهية؟ وهل تقف الحاكمية الالهية ضد حاكمية الأمة والشعب؟ لتحرير القول في ذلك لا بد من مراعاة حقيقتين مهمتين:

1. الحقيقة الدينية: حيث لا يختلف انسان مسلم كيفما كان مذهبه على أن الحاكمية الأولى هي الحاكمية الإلهية والا سقط المعنى الأول والاساسي للدين الذي يختزن مجموعة من الحقائق الدينية (الحياة، الموت، البعث...).

2. الحقيقة الاجتماعية /السياسية: حيث من المسلم به أن الاسلام يستهدف تحويل نصوصه وتعاليمه الى قيم وأخلاق وأحكام وبالتالي الى ثقافة تؤطر الانسان المسلم بقوتها ونفاذها ونفوذها. وذلك لا يتحقق الا بتفاعل الديني مع الاجتماعي/الثقافي/السياسي. حيث على السياسي مثلا تسخير الديني المقدس في بناء الثقافة الاجتماعية للمسلم.

هذا المبحث في الاسلام والديموقراطية عند مالك بن نبي احتل 32 صفحة من الكتاب. وهو بحث فلسفي غير مسبوق. ولم يلحق به ما هو أفضل منه. وأكتفي هنا بما انتهى اليه مالك بن نبي بعد أن أوضح أن الديموقراطية لدى المسلمين يجب أن تكون أكثر عدالة ورشدا وحكمة وحفاظا على حقوق الانسان وكرامته وحريته وأن الاسلام يدين كل الطفيليات، وكل الطواغيت بما فيها الطاغوت السياسي والاقتصادي والديني

(على شاكلة نظام الاكليروس)، يدين كل ذلك باعتباره يقضي على الجانب الاجتماعي في الديموقراطية الاسلامية، حتى لا يقع المسلم في وضع العبد الذي تستعبده الأوضاع الاقتصادية، أو أن يصبح مستبدا وبيده صولجان الذهب والمال. انتهى مالك الى القول: «اذا كان المراد بالديموقراطية نظام الحكم المضاد للديكتاتورية فمن الممكن أن ينسجم الاسلام مع الديموقراطية، لأنه ليس فيه موقع لحكومة تدار وفق هوى فرد أو جماعة من الأفراد. فأساس القرار في الحكومة الاسلامية وأعمالها ينبغي أن يكون الشريعة لا الهوى أو الهوس الشخصي... (وذلك) شرط مسبق للديموقراطية، انه الشرط الفكري والثقافي الذي تعبر عنه الأحكام والتشريعات الاسلامية المستنبطة من القرآن والسنة والمشروطة بالاستعانة بآليات الشورى والاجماع.

والخلاصة أنه لا تعارض بين الاسلام والديموقراطية باعتبار أن الديموقراطية حركة موضوعها يقع في منطقة الفراغ التشريعي من جهة، ومن جهة ثانية لكون أسسها وانطلاقاتها النظرية ـ مثل حق الاختلاف ـ تتوافق مع المفاهيم القرآنية التي اعتبرت الخلاف سمة ملازمة للاجتماع الانساني.

يقع الكتاب في 174صفحة من الحجم المتوسط، وهو جدير بالقراءة، حيث اجتهد الباحثون فيه أن يقدموا فكر مالك بن نبي من واقع مجموعة كتبه التي ألفها، في العديد من القضايا الفكرية التي ما زالت تحتفظ براهنيتها. وقد عرضت منها بعض ما اعتبرته أكثر أهمية بايجاز بقدر الامكان. وقد كانت راهنية فكر مالك بن نبي موضوع مداخلة الاستاذ مصطفى شعايب الذي أوضح فيها أن حديثه عنها ليس عملية اسقاط تعسفي هدفها الحاق هذا المفهوم بذاك الفكر، بل ان المشروع الحضاري لمالك يحمل كل جينات وخصائص هذه الراهنية وهو كل ما سوف يتوضح لاحقا.

* كاتب مصري مقيم بالمغرب

مالك بن نبي

معادلات مالك بن نبي:

* الحضارة = الانسان + التراب + الوقت..... الفكرة الدينية
* توجيه الثقافة = المبدأ الأخلاقي + الذوق الجمالي + المنطق العملي + الصناعة
* المجتمع = عالم الأفكار + عالم الأشخاص + عالم الأشياء
* فاعلية الطاقات الاجتماعية = اليد + القلب + العقل
* حل مشكلة = توجيه الثقافة + توجيه العمل + توجيه رأس